

العادة ونتائجها

بم جبرائيل صرمظ اساذ الفلسفة والرياضيات في مدرسة كنيون

(تابع ماقبله)

ومن أظهر ما يستدل منه على صحة الرأي الذي ذكرناه من وجود مجهز عصبي تصدر انعالة
بداية أي بدون توسط الإرادة ما يصدر من النائم أحياناً فإنه يقال ان أحد الحمامين عرضت
عليه مسألة شرعية اشغلته مدة وهو لا يهتدي الى حلها لتغلغل شعبيها وانغماس مسألتها فلما كانت
ابنة بعد ان اوى مضجعه ونام قام في نومها الى مكتبه فكتب الساعة والساعين ثم رجع الى فراشه
ولما استفاق صباحاً رأى من نومه كأنه حلم في المسألة وانهتدى الى حلها لكن لم يكن يذكر من
ذلك إلا هذا الذكر الخيالي ولما فاتح زوجته ذكرت له انها رأته يكتب على مكتبه في ساعة كذا
من الليل فتش بين اوراق المكتبة فاذا حل المسألة مسطور هناك وفق ما يريد ويحكي عن آخر
انه اشغل في مسألة رياضية مدة فلم يهتد الى حلها إلا انه استفاق يوماً صباحاً فاذا هو مسطور
على ورقة على اخصر طريقة تمكن وعلى اسبابها تعجب لذلك وسأل صاحبة المتزل التي هو في بيتها
عمن دخل الى غرفته فاكدت له ان لم يدخلها احد سواه فامعن في الاحرف فاذا المحط خطه
والاسطر اسطره وهو لم يعلم شيئاً من ذلك . ويحكي ان احد التموس الواعظين ألف عظة من
احسن ما وعظ وهو في حالة النوم . فهذه الحوادث وما اشبهها يؤخذ منها ان تلك الافعال
العقلية انما هي افعال منعكسة للمجهز الدماغى صدرت عنه بدون مداخلة الارادة . إلا ان هذه
الاحوال لا تقع من لم يعتادوا مثلها او يترنوا على اشبابها سابقاً تحت عناية الارادة فإنه لا يمكن
لجاهل في المسائل الشرعية ان يهتد الى حل مسألة معضلة في هذا الفن ولا من لم يشتغل في
الرياضيات ان يجيء بحل مسألة فيها وفقاً لقواعدها وعلى اقرب طريقة فيها واحسن ترتيب
ولا لمن قضى حياته وهو يكاد لا يفهم ما يعرض له ان يؤولف عظة من العظات

ومن هذا التليل افعال من يحول في نومها وافعال المنوم فان الاول قد يفعل من الافعال
ما يعجز عن اقلها في حالة اليقظة من تجري على شرفات الابنية مع ما هي عليه من العلو وقلة
العرض او التساق على الاماكن العالية حيث يكاد لا يجد متراً لرجاء فان هذه جميعها افعال
منعكسة للحيل الشوكي واذا تأملنا رأينا انها منعكسة تجري على اتم اتفاق واشد احكام ما لو كانت
ارادية لانها كذلك لا يتوش فعلها الناتج بما سواها من المحسوسات او هلع الارادة مما يرى

او كما يستدعي الخوف وفشل التدبير . وكذلك افعال النوم فانه يجيب احسن اجابة عما يدال عنه وقد يقول بما غابت عنه معرفته وقت البقعة حتى يظن ان لا اثر له في تنومه . ومعلوم ان افعاله العقلية منه تصدر عنه لا بموجب الارادة كما لا يخفى على عارف بحالة التنويم فهي اذا افعال منعكة او بديية لجهازه الدماغي ونسبتها الى القوى العاقلة كسبة حركات الجائل في نومو وافعالو الى الحيل الشوكي . ولا يخفى على المتأمل ان افعاله البديية منه قد تكون ادق واصوب منها في حالة يقظو لانه كذلك يتأتى توجيه الانتباه اتم توجيهه الى الحالة التي هو فيها فلا يشوش على الجهاز في اعماله حينئذ مشوش من مداخلة الارادة وصرف الانتباه الى موضوع آخر

بقي علينا ظاهرة اخرى نبين انطباقها على الجهاز العصبي او الدماغي وهو ان ما اعيند عليه قبل البلوغ يصعب نسيانه بعد ذلك كما انه يصعب بعد اكتساب ما هو مقابله للعالة التي اعيند عليها قبل البلوغ

كل ذلك لانه بعد البلوغ ترسخ الجهيزات البدنية والعقالية على الحالة التي اعتادتها قبله فيصير ذلك الجهاز في حالته هذه جزءاً من مجموع الهيكل تحتفظه العاذية في حالة اعتدال هذه ولما كانت الاجراء النامية اولاً والمتكاملة اولاً اشد رسوخاً من النامية ثانياً او ثالثاً والمتكاملة كذلك كان الارسخ في دور الانحطاط ونقصان التغذية اقوى من غير الارسخ على تمثيل الغذاء واحتناظو على اعتدالو فيزول الاضعف رسوخاً اولاً فاولاً ويبقى شديد الى ما بعد . ولذلك فما حصل اكتسابه بالعادة بعد البلوغ كان اقرب زولاً وما اكتسب في ايام الصبوة كان اشد ثبوتاً فنحفظ النفس مدركاتها ايام الصبوة في زمن الانحطاط وتضع اولاً ما اكتسبه آخر . فان اول ما ينساه الهرم حوادث كهولتو واعماله فيها ثم حوادث شبابه و آخر ما يبقى في تنومه ذكر ايام صبائه وما فعل اثناءها

وكل ذلك ظاهر تعاليمه على مبدؤ ان الاثر الذي توجهه العادة في الجهاز ايام الكهولة يكون اقل رسوخاً من غيره ولذلك كان اول ما يبقى ازمان لا تقوى التغذية على نسيته الغذاء لكل اجزاء الهيكل ثم يبقى ما اكتسب قبل الكهولة عند ما يزداد انحطاطه وكذا يبقى جزء بعد آخر حتى لا يبقى من الاجزاء الا الاجزاء الاصلية فاذا ازداد انحطاط وعجزت العاذية عن حفظه ايضا مات الهيكل

وما ذكرناه قد يكفي في بيان ما اردناه من استقلال اعمال الجهيزات بعد ان تتكيف بالعادة على كيفر مخصوص حتى قلما تحتاج الى فعل الارادة الا في استغنائها اولاً . وقد يكون الحاث ما غير الارادة من تاثير خارجي كما لا يخفى على المتأمل في كثير من احوال البقعة والنام والتنويم

الآننا نريد المقام اشباعاً بذكر ما نراه من حكم العادة ولا دخل معها للارادة في بعض افعال الجسم والعقل معاً. وذلك يكون على اوضح واجلاد في افعال الحيوانات الدنيّة الرتبة والاطفال والمعتمدين ما نعلم من عدم مداخلة الارادة في هؤلاء اوصعها الشديد بحيث تكون كل افعالهم او اغلبها تجري مجرى البداهة او على ما يعرف اصطلاحاً بالعمل المنعكس. فمن ذلك ان اكثر ما يتعلمه الحيوان كالحصان والكلب مبني على مبدأ اثنان الموهبة او المتارفة اعني ان نعوده على بعض اعمال وتدريبه عليها حتى اذا اعتادها او رسمحت في مجبزه كان اقل فعل بحيث عليه له اثنان معينة بتلك الاعمال كانه لان يهيج مجبزه للعمل الذي اعتاده

فالكلب الذي يعود على مسك الشمعة مثلاً يرائق تعلمنا ذلك له وتدريبنا اياه عليه بعض اشارات او كلمات منا له مع بعض ظروف اخرى او بدونها فاذا اشرفنا اليه بذلك الاشارات او لفظنا على مسمو تلك الالفاظ المعينة المعتادة فعل حينئذ مجبزه المخصوص بمسك الشمعة افعاله بداهة على مبدأ اثنان المعية فيمسك الشمعة او يعمل غير ذلك ما درست عليه مجبزه. وكل ذلك اما لا دخل للارادة معه اصلاً او ان اثرها لوحد لا يتوى على حمل الكلب على تلك الاعمال لولا اعتبار الجهيزات عليها وتربيتها سابقاً. وقد يبرن الجهاز على العمل حتى ان مجرد رؤية الكلب مائدة الطعام والآكلين عليها يكفي ان يدعو مجبزه الى العمل فيقف الوقت المعتادة ويرفع يديه سواً مسك شمعة او لم يمسك

وفي اول الامر قد لا يأتي بعمله هذا الا اذا رأى الاشارات المخصوصة وسمع الكلمات المعينة من الشخص المعين ايضاً ورائق كل ذلك من الاحوال المعتادة كوجود المائدة وكثرة عدد الآكلين وزيادة الشموع والاضوية بل ربما اظهر من التامل وعدم الرغبة في الامر ما لا يدّ معه الى تكرار الاشارات والكلمات وحده فملاً الى العمل كانهماض يدبر ووضع على الوضع المنتضي ثم اذا ألف على العمل وترب فيه المرات قلّ تملله عند العمل ثم اذا ازداد درجة ايضاً قلت الحاجة الى امره اكثر من مرة واحدة ثم قد يستغني عن الامر جميعه فلا يحتاج الى الاشارات ولا الى الكلمات بل مجرد رؤيته الطاوله يبعث الى الحركات والاعمال المعتادة بل قد يكون في السوق فيرى عرضاً او يسمع من الاشارات او الكلمات ما له اثنان معينة مع عليه المعود عليه فيقف وييدي اعماله وحركاته المعتادة على ما يديها حذاء الطاوله. وهكذا

يقال في تعليم الخيل وجرار البهلوان وعترته ما امره معلوم كل العالم عند الاكثرين

ثم ان بعض ما يعتاد عليه في اوقات معينة به اورد المعتاد عليه في الوقت نفسه بداهة وليس ثم ما يعرفه بالوقت فانه يحكي عن كلبه كان يطعم في زمان معين ومكان معين فكان يأتي

المكان المعين في الزمان المعين تماماً لا يخطئة كأن معه ادنى الساعات واضطها
ويحكي عن سنونو كان يأتي الى كوخ كل يوم في ساعة معينة بعد الظهر ويضرب ينفاره
باب الكوخ يطلب رزقة المعتاد . ويحكي أيضاً عن كلب كان يكره الفحل وكان اصحابه يغسلونه
في كل خمسة عشر يوماً مرة فصار اذا جاء اليوم الماين يهرب من البيت فلا يعود اليه حتى يمر
وقت الفحل . ومن المعلوم ايضاً ان حصان من يتجول على زبانه اذا مر عليهم مرة بعد اخرى
صار من تلقاه ندمو يقف في باب كل زبون لا يدي حركة اثناء زمن اعتياد صاحبه على البقاء
في بيت ذلك الزبون فاذا انتقضت المدة فاق وتلجل حتى اذا كان صاحبه في غفلة عن فبات
الوقت غطن لذلك وهو ايضاً اذا حدث ما دعا الى وقوفه في مكان معين من الطريق وقف في
المكان عينه المرة الثانية بعد هن

وقد يكون من الاشخاص من تدعوم اشتغالهم للنيام في ساعة معينة من الليل فيستمدون
المنبه في بدء الامر فاذا اعتادوا النيام في تلك الساعة على ايام استغلب اخيراً عن المنبه كل
الاستغناء فيستيقظون من نومهم العميق في الساعة والدقيقة المعتادين الا انه لا ينكر ان افراد
الحيوان والانس على تفاوت فتنهم من يسهل عليه كل السهولة التكيف لما بلائم المعتاد ومنهم
من يصعب عليه ذلك فلا يحصل معه هذا التكيف الا بعد اشد الثمرين مدة طويلة جداً وقد
لا يبلغ في ذلك الا مبلغاً دون الطفيف

ومن المشاهدات في صغار الرلدان انهم اذا املوا في شيء عاودهم الامل في معتادهم فقليل
لذلك كل الفلق ان لم يحصلوا على المؤمل وبعض الصغار من الصبيان ممن قوة النمو فيهم على
اشدها وينقصهم من التهذيب وقوة الارادة يصعبون عييداً للمعادة فيجري اعلم البدنية وحركات
خطا طرم وراء المعتاد لا وراء ما ينضي به حكم النظر الصحيح وقوى النفس العاقلة قضاء بالاحسن
فترى الكثيرين اذا الفوا غذاء معيناً لا يتناولون غيره ولو اضرهم تاج المجموع وحال الفتر
المدقع بينهم وبين ما اعتادوه وزي آخرين اذا اختلف حال علمهم شيئاً عما اعتادوه تركوا العمل
ولو فيو لم من الضرر والحسارة التي الكثير وترى الآخرين لا يلجسون من الثياب ما خرج في شكوا
عما النوء ولو قرصهم البرد واضرهم التعري . وقد قال احد المدققين في البحث ان اصحاب معامل
الاشياء اذا تغيروا في لون اشياهم واشكالها الى غير المعتاد رغب اللابسون عن بضاعتهم
فكسدت ولذلك تبقاه الاشياء احياناً الى زمن طويل لا تخرج عن هندام معين الى احسن
منه ليس من نقص في ثقتن اصحاب المعامل بل معظم سيرة في اللابسون فانهم يتكرونها اذا تغير
عما طبعته العادة في اذناهم

وقال احد اصحاب الخازن الكبيرة ان المشغلات عند تركن الشغل عن آخر من في مخزنه من خمسة عشر يوماً لانه ارادهم ان يخالفن هتدام المغول شيئاً اعتمدته ولم يكن في الامر ما يوجب لمن ادنى مشقة زيادة عن الاول . فكل ذلك اتخى ما مرّ باجمعه وامثاله من الحوادث ما يدل على قوة الميل الى البقاء على المألوف ومقاومة ما يخالفه ما لا يعلل عنه تعليلاً مقبولاً الا ما ذكر من امر الجهاز العصبي واعنياديه بحيث صارت اعماله تجري على البداية فيكون نسيانها والخروج عنها الى ما يغيرها كل ذلك يصعب عليه ويبحث على المقاومة والعناد او البقاء على ما كان . وقد يظهر ميل هذا الجهاز على اشدّه للرجوع الى الحالة التي كان عليها في بعض المعنويين الذين تنفصم الارادة في سائر حركات عتولم وابدايتهم فتكون جميعها من قبيل الحركات البدئية لما ان عنهم حال دونهم ودون استيلاء قوة الارادة والحكم على افعالهم . فقد حكمت من مارتينو عن فتى اودع الى عيانيها وكان الذي قد اصابه العنة لاصابة في دماغه فلم ينهياً له من عتوه ان يكتسب قوة الطيق ولا ان ينهم لغة الآخرين او يفتنه شيئاً من خواطرهم الا انه مع هذا كان شديد الاحساس حتى انه يشق عليه ادنى تغير يعرض على احواله في الزمان والمكان ويملل منه لكن كان اذا ضُعب يوم اوله شيء في وقت معين من اليوم يطلب معاودة صنع ذلك الشيء بعينه كل يوم في وقتو المعين من يوم اذ ضُعب به اولاً فصاعداً . وكان هذا المعنوي يكره ان يتداخل احد في امر شخصه ولكن حدث ان طال شعرة واظافره فنصّ ذلك وقتلمت هذه بعد الساعة الحادية عشرة صباحاً بهشردغائق فلما جاء الغد والساعة عينا والدقيقة عينا جاء بالمشط والمنص والمناشف كأنها هودنوع الى ذلك قسراً ولم يهدأ له روع حتى نُصّ له واستمر على ذلك فيما بعد في الوقت المعين بمعاودة طلب ان يُنصّ له وكان لا يفقه معرفة الساعة ما في المكان من الساعات وعدا عن ذلك انه اُبعد عن كل مكان فيه ساعة او يتصل بجموع صوت دق الساعة لكن ما زال يطلب ان يُنصّ له في الوقت عينه

وكانت اعماله فيما يتعلق بالشكل والعدد والكعبة على غاية من الترتيب والضيظ فكان يلبس في قطع الاوراق ويجي بهما على غاية من التناسب والمساوية وكان له ايضا عدد من الترميد يلبس بها داخل غرفته فكان اذا ترك غرفته مدة ثم عاد اليها يراجع لمسها وعدّها فاذا وجد منها شيئاً مقنوداً اخذته التلق الشديد او يُعاد المقنود . وما كتبت عنه ايضا انه اعطي بمدها سعة من نوع من انواع الحلوى فكان اذا اعطي بمدها ستة لا يكتفي بها واذا اعطي تسعة لا ياخذها الا ان يرد منها اثنتان قنابل . كل ذلك ما لا يعلل عنه تعليلاً مقبولاً الا اذا فرض وجود مجيز وتكيفة لما يلائم ما اعتاد بحيث يصح المعتاد ما يشق الخروج عنه الى غيره (ستاتي البنية)